

إعادة قراءة ماركس من منظور تيري إيجلتون

قراءة في كتاب "لماذا ماركس كان على حق؟"

Rereading Marx from Terry Eagleton's Perspective *Read a book "why Marx was right?"*

أ. لخضاري فهيمة *

أ.د محمد طيبي *

تاريخ النشر: 2024/12/20	تاريخ القبول: 2023/09/18	تاريخ الإرسال: 2023/06/28
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى توضيح بعض المفاهيم والأفكار المحرفة عن ماركس من خلال تحليلات تيري إيجلتون في كتابه: "لماذا كان ماركس على حق؟ *why Marx was Right ?*، الذي قام بمقارنة النص الماركسي بنصوص خصومه، محاولاً تفنيد مقولاتهم الذاهبة بالماركسية أحياناً إلى الستالينية وأحياناً أخرى إلى التروستكية (تيار شيوعي)، حيث يفصل إيجلتون في هذا الأمر من خلال البرهنة عليها، ساعياً إلى فهم أفكاره فهماً صحيحاً واضحاً، خاصة إذا كان هذا الأخير مبتدئاً في مجال الماركسية، ولم يتجرأ على كتب ماركس من قبل، ليكون بذلك قد صَحَّ مسار القضايا الأكثر نموذجية من بين كل المسائل.

الكلمات المفتاحية: ماركسية، رأسمالية، طبقة، طوباوية، حركة راديكالية.

Abstract:

The aim of this study is to clarify some of the distorted concepts and ideas about Marx through Terry Eagleton's analytics in his book "why Mars

* جامعة البليدة 2، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية

ef.lakhdari@univ-blida2.dz

* جامعة البليدة 2، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية taibi.afr@gmail.com

was right?" who compared the Marxist texts with those of his opponents, trying to refute their sayings which take Marxism sometimes to Stalinism, sometimes to Trotskyism (communist current), where Eagleton elaborates on this matter by proving it, seeking to understand his thoughts correctly, Especially if the latter is a novice in the field of Marxism, and he never dared to read Marx's books before. So, he corrects the most typical cases of all the issues.

Key words: :Marxism, capitalism, class, utopia, Radical movement.

*** **

المؤلف المرسل: فهيمة لخضاري fahimalakhdari26@gmail.com

مقدمة:

لم توفق الماركسيّة في البقاء ولم تحدد مفاهيمها الصّحيحة، فوضّحها تيري إيغلتن من خلال كتابه "لماذا كان ماركس على حق؟ راصدا ما فهمه أتباعه (ماركس) وخصومه بكلّ حذر ودقة، مقارنا النّص الماركسي بنصوصهم، مفندا تأويلاتهم التي ذهبت بالماركسية أحيانا إلى الستالينية وأحيانا أخرى إلى التروتسكية، وصولا إلى ما بعد الحداثة التي حاول بعض أتباعها تطويع مفاهيم ماركسيّة، كالطبيعة والطبقة الاجتماعية والمجتمع المدنيّ، الخ..."¹، وهذا العمل في مجمله هو محاولة لتصحيح مسار ماركس الفلسفي، لكن هذا لا يعني أن أفكار إيغلتن صحيحة بالمطلق، إنّما هي مجرد قراءات للنقاد ماركس صاحب كتاب "رأس المال"، هذا الأخير الذي شغل بال نقاد كثر لفهمه، وعليه؛ ينبغي أن يُطرح السؤال الرئيسي الموالي:

في ماذا تتمثّل المقولات الماركسية المحرّفة التي قوّمها إيغلتن؟

لقد خصّص إيغلتن في كتابه عشر مقولات أراد مناقشتها وتصحيحها، باعتبارها من أهم قضايا الفكر الماركسي، الذي يستند إليه في تفكيك النصوص الروائية، وسنقوم الآن بتلخيصها في عناوين موجزة ومناقشة فحواها على النحو الآتي:

1. نهاية الماركسيّة:

يقول النقاد:

"انتهت الماركسيّة. ربما كان لها بعض الأهمية بالنسبة إلى عالم معامل النسيج وثورات الفقراء، وعمّال المناجم وتنظيف المداخل، البؤس واسع الانتشار، والطبقات العمالية متراكمة. ولكن بالتأكيد ليس لها علاقة بالمجتمعات الغربية ما بعد الصناعية الخالية بازدياد من الطبقات في الوقت الحاضر المتحولة اجتماعيا. إنّها عقيدة أولئك العنيدون جدا، الخائفين أو الموهومين بأنّ العالم قد تغيّر إلى الأفضل، بالمعنيين للكلمة"².

يبدو واضحا أنّ الماركسيّة بنظر إغلتنون لم تمت، ولكنها ضعفت، وسبب هذا الضعف هو الاعتماد على ما ادعته من مقولات، والشعور بالعجز السياسي في تطبيقها، إذ يصعب على الماركسيين الإيمان بفكرة نجاح الماركسية في ظل تغير الظروف، فإذا كان دخل ملياردير واحد يساوي ما يجنيه الملايين من المواطنين الفقراء مثلا، فهذا يجعلنا نصدق بانتهاء الماركسية، لأن طبقات المجتمع في هذا الوضع تصبح غير متساوية، ضف إلى ذلك أنّ ازدهار الرأسمالية جعلنا نصدق بانتهاء أكثر ممّا كانت عليه.

في موضع آخر يعود إغلتنون ويوضح أنّ ماركس تنبأ إلى أنّ العصر الحاضر قد تعمق فيه مبدأ تفاوت الثروة بشكل مفاجئ، الأمر الذي تسبب أيضا في ضعف الماركسية، إذ لا يمكنها أن تتركز في أوساط شعوب يكسوها الثراء، بل يجب على العكس من ذلك أن تكسوها ظروف مزرية لنشأتها، وفي المقابل صار هذا الوضع مكسبا للرأسمالية.

يطرح إغلتنون في كتابه سؤالاً مهماً هو: ماذا لو لم تكن الماركسية هي التي انقضى عهدها؟ ثم يجيب في معنى قوله أنّه في العصر الفيكتوري في انكلترا، كان "ماركس يرى النظام قد فقد زخمه، فبعد أن كان يشجع التطور الاجتماعي في عزّ مجده، أصبح الآن يعمل على كبحه. لقد نظر إلى المجتمع الرأسمالي كسدّ مياه يملأه الوهم والوثنية والأسطورة وعبادة الشخص، ومع ذلك كان يتبجّع بحداثته"³، ففي رأي إغلتنون هنا أنّ الرأسمالية لا تزال صامدة رغم ما تمرّ به من ظلم وفقر، بينما تبقى

الماركسيّة على أمل أن تحقق أسطورة الثراء الخرافي لمجتمعها، الثراء الذي يولّده نمط الإنتاج ليكون في متناول الجميع في الوقت المناسب، بينما الواقع يفرض وجود طبقتين: أناسا فقراء وآخرين أغنياء، تماما كوجود أناس سود وآخرين بيض على حد سواء. ففي "التعريف الماركسي للفلسفة بأنها فلسفة طبقة Class [غير صحيح]، فلو كان هذا صحيحا فستعدّ الماركسية فلسفة طبقة وهي طبقة البروليتاريا كما يزعمون، بينما ماركس لم يكن بروليتاريا... وإلا كيف تكون فلسفته انعكاسا للطبقة المنتهي إليها..؟"⁴ بهذا المفهوم نستنتج التناقض القائم بين مكانة ماركس في المجتمع وما يطمح الى تحقيقه في ظل ظروف مادية واجتماعية مزرية.

2. الماركسيّة والتطبيق:

يخصّص إغلغتون هذا الفصل للكلام عن الجانب التطبيقي للماركسيّة فيعرض وجهة نظر النقد القائل: "قد تكون الماركسيّة ممتازة جدا في النظرية، ولكن حينما وضعت في التطبيق كانت النتيجة إرهابا واستبدادا وإبادة جماعيّة على مستوى لا يمكن تخيله. ربما بدت الماركسيّة بمثابة فكرة جيّدة للأكاديميين الغربيين الأغنياء الذين يأخذون الحرية والديمقراطيّة على أنّهما مضمونتان، لكن بالنسبة لملايين الرجال والنساء العاديين، عانت المجاعة، والمشقة، والتعذيب، والأشغال الشاقة، والاقتصاد المنهار، والدولة القامعة بوحشيّة، وجميع أولئك الذين ثابروا على دعم النظرية بالرغم من كلّ هذا، إمّا أنّهم غليظو الذهن أو أغرار أو فاسدون أخلاقيا، تعني الاشتراكية عدم وجود الحرية، وهي تعني أيضا انعدام الخيرات، بما أنّ هذا مرهون بنتيجة إلغاء الأسواق"⁵.

رغم اختلال هذه الترجمة إلّا أننا نفهم أنّ إغلغتون هنا يحاول أن يفند هذا القول بمجموعة من الحجج؛ أهمها تباهي ألمانيا الشرقيّة الشيوعيّة بأنّها الدولة الأكثر رقيّا، كونها صاحبة إحدى أهمّ منظومات العناية بالطفل في العالم. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، الحدّ من مظاهر الاستعمار، والعمل على شحن الهمم بتضامن المواطنين حتى يظهروا كأنّهم دول غربيّة لا تهزم، لكن برأينا هذا لا يعني أنّ الشيوعية لم تخلف خسائر، إنما زادت فيها نسبة الفقر واللامساواة وقامت بإغلاق بعض مراكز التمريض،

كما أن أرباحها قد فاقت خسائرها بدرجة ضئيلة، وفي المقابل كانت الرأسمالية تتخبط في البطالة، ووصل أنصارها إلى الهاوية.

في موضع آخر يرى إغلتنون أنّ ماركس لم يتصور ذلك النجاح الباهر للماركسيّة في ظل الظروف المفقرّة، فهو يشبه على حدّ تعبيره اختراع الأنترنت في العصور الوسطى، لأنّ هذا الأمر استحال تحقيقه على الواقع حتى وإن شمل في تحقيقه بلدا واحدا، والحكم هنا على الاشتراكية من بلد واحد معزول هو أمر شاذ لا يمكن تعميمه على بقية الدول، وعليه؛ لا يتم بناء اشتراكية إلّا في ظروف سيئة، وفي محيط يملأه الفقر المادي والثقافي، فكل اشتراكية هي نقد للرأسمالية.

يوعز سبب قيام الستالينية إلى الماركسيّة (بالنسبة لاغلتنون)، حيث أن المجتمع الستاليني كانت تتحكم في أعماقه المجتمعات الشيوعية، والاشتراكية التي ينتهي إليها ماركس ليست اشتراكية السوق كما يزعم بعض الماركسيين، بل هو يؤمن بأنّ السوق سوف يتأخر طوال المرحلة الانتقالية التي تلي الثورة الاشتراكية، حيث أنّها (الأسواق) ساعدت على تحرير الرجال والنساء من الاعتماد على الأسياد واللوردات، لذا يجب على الملكية الجماعية أن "يتولى إدارتها هيئات منتخبة ديمقراطيا، يمكن أن تضم أعضاء الهيئات العامة وممثلين عن وسائل الإعلام أو الهيئات الفنية"⁶ لتصبح السلطة بيد جماعة اشتراكية. ويضيف إغلتنون مؤكداً أن هذه اللجان تكون مستقلة استقلالاً تاماً عن الدولة، لأنّ المنتخبين فقط يستطيعون أن ينتجوا عملاً مستقلاً عن توجيهات الدولة وعن ضغوطات السوق الملتوية، ومنه نستنتج أنّ دوافع وجود الماركسيّة هي تلك الأوضاع الاجتماعية المزرية التي يعيشها المجتمع، وليس تطبيق الماركسيّة هي من تسبب في تدهور أوضاع البلد، المسألة هنا هي مسألة ترتيب لا أكثر، بهذا يكون إغلتنون قد صحح مفهوم التطبيق بالنسبة للماركسية وقدم كل الدلائل لإثبات وجودها، ولم يتجرأ أحد على المساس بمفاهيمها أو "التخلي عن بعض أسسها لملاءمتها مع الواقع الذي يدرسونه"⁷ كما يقال.

3. نظرية ماركس في التاريخ:

يقوم هذا الفصل على أنّ نظرية ماركس حول التاريخ في نظر الماركسيين "نسخة علمانية للعناية الإلهية أو القدر. إنها مقاومة للحرية البشرية وللألوهية على حدّ قول الماركسيين"⁸، وهو ما قال عنه مجاهد عبد المنعم في كتابه "مقدمات في نقد النظرية الماركسية" أنّ: "ماركس يتصور نفسه كإله واقف خارج التاريخ والكون والإنسان"⁹، لكن لو نبحت عمّا يميز الماركسية نجد أنّها ليست هي الشيوعية، لأنّ هذه الأخيرة منشأها قديم، كما أنّها ليست اشتراكية في الأخير، كونها تسبق عمل ماركس بزمان طويل، وعليه يصعب تحديد الملمح السياسي الذي يتفرّد به تفكيره.

أمّا ما يشغل تفكير ماركس (بالنسبة لا يغلتون)، هو الاقتصاد في الحياة الاجتماعية، وتعاقب أشكال الإنتاج عبر التاريخ، إذ يصحّ هرمان دونكر في البيان الشيوعي قائلا: "إنّ تاريخ أي مجتمع حتى الآن ليس سوى تاريخ الصراعات الطبقيّة"¹⁰، وهو ما يتوافق فيه مع ماركس، بمعنى أنّه "إذا كان تنظيف أسناني يوم الأربعاء الماضي يعتبر بمثابة جزء من التاريخ، فإنّه من الصعوبة أن نرى في هذا الحدث صراعا طبقيا [...]، بينما لو أنّ تشي غيفارا (che guevara) قد صدمته شاحنة، ولكن فقط إذا كان عميلا من المخابرات المركزية الأمريكية (CIA) وراء الموقود، لكان مجرد حادث [عارض]"¹¹، بهذا نفهم أنّ الأحداث التي لا علاقة لها بالسلطة يكون التاريخ فيها عامّا، بينما لو لمست هذه الوقائع جانبا من جوانب الطبقة الحاكمة لأصبح الحادث ناتجا عن صراع طبقي، وهذا ليس هو المقصود فقط عند ماركس، لأنّ الصراع يتمثل أيضا في إعطاء، "الشكل عددا كبيرا من الأحداث التي تبدو لأوّل وهلة كأنّها بريئة منه وهو يلعب دورا حاسما في المرحلة الانتقالية المضطربة من عصر تاريخ إلى آخر. فماركس لا يعني بالتاريخ كل ما حدث في السابق، بل المسار المعيّن الذي يكمن فيه"¹² هذا من حيث علاقة الصراع بالتاريخ، ولكن ما تفرّد به أكثر يتمثل في إلصاق فكرة الصراع وأساليب الإنتاج لينتج صورة تاريخية جديدة وأصيلة.

يشرح إيغلتن الصراع الطبقي بطريقة أخرى لا يكون مثل ما هو متعارف عليه بأنّ طبقة عليا تختلف مع طبقة دنيا، فهذه الفكرة علمانية، بل هو صراع على

الفائض، حيث يوزع الفائض العمل على فئة المحرومين ليبقوا على قيد الحياة، وإذا غاب هذا الفائض فإنّه حينها لن توجد طبقات. ثمّ إنّ هناك "صراعا طبقيًا، يبدو وكأنّه يوحي بأن الرجال والنساء هم أحرار، ويصعب الاعتقاد بالاضطرابات وإغلاق المصانع واحتلالها مفروضة بقوة إلهية"¹³، وأنّ حتميّة الاشتراكيّة لا تعني أنّ نبقي منتظرين إلى حين أن تأتي، لأنّها ستأتي بمجرد فشل الرأسماليّة ويقوم العمال بالاستيلاء على السلطة لأنّهم يدركون أنّ هذا يصب ضمن مصالحهم، فيقومون بتغييره بأيديهم لأنهم لم يروا فيه منفعتهم، ثمّ إنّ الرأسمالية حين تترنّج إلى درجة الهلاك لا يعني هذا أنه ستحلّ محلها الاشتراكية بالضرورة، وعليه قد يسفر عن الصراع الطبقي (دمار جماعي) للطبقات المكافحة بدل السلطة، وعليه تبقى البروليتاريا أكثر الطبقات ضررا من هذا الصراع.

4. الماركسيّة حلم طوباوي:

يستهلّ تيري إغلتنون فصله من فكرة أنّ "الماركسيّة هي حلم من الطوباويّة، إنّها تؤمن بإمكانية مجتمع مثالي، خال من العناء أو الألم أو العنف أو من الاختلاف تحت ظلّ أنّ الشيوعيّة لن تكون هناك منازعة أو أنانيّة أو تملّك أو منافسة أو لا مساواة"¹⁴، وعلى هذا الأساس يقوم إغلتنون بصحيح هذا القول بدءا من مصطلح "الطوباوية"، فيقول أنّ معناها الحقيقي ليس كما يتوهم البعض بأنّها تعني الكمال، فلو كانت الطوباوية تعني مجتمعا كاملا لكانت الطوباويّة الماركسيّة تناقضا في المصطلح، في حين توجد مصطلحات أخرى قد توافق هذا المعنى، فبالنسبة لماركس، هو لا يبدي أي اهتمام بمستقبل "خال من الألم والموت والضياع أو الخطأ أو الانهيار أو الخلاف أو المأساة أو حتى من العمل"¹⁵، ولا يقدّم أي شرح أو تفصيل عن مظهر المجتمع الاشتراكي أو الشيوعي (من حيث المثاليّة)، فكيف يهتمونه في الوقت نفسه بأنّه يرسم مخططات طوباوية؟ لكن لو نعود إلى الوراء حين تكلم إغلتنون عن نشأة الماركسية التي لا تكون إلّا في الأوضاع المزرية لأدركنا التناقض الذي يقع فيه إغلتنون، إذ أنّ الوضع المزري هو مظهر للمجتمع الاشتراكي، أليس كذلك؟

أما الذي يتاجر بالمستقبل ويفكر فيه كثيرا قصد تغييره لفائدة مصالحه في نظر إيغلتن هو الرأسمالية وليس الماركسية، فماركس كان يفكر بأن الاشتراكية واقعة لا محالة، لكنه لم يقدم عنها صورة كيف سيكون شكلها، وهذا راجع لعدة أسباب أهمها:

1- غياب المستقبل ورسم أي صورة عنه ستكون في إطار كاذب، هو "مستقبل حتمي، لكن الحتمي ليس بالضرورة مرغوبا"¹⁶، فالموت مثلا هو غير مرغوب ولكنه محتم، ثم إن التنبؤ بالمستقبل قد يكون لتحسين الحاضر، فالأنبياء مثلا كان دورهم التنبؤ لتغيير طرقنا، فلولاهم سوف لن يكون لنا مستقبل على الإطلاق، وعليه فقد "كان ماركس نبيا وليس متنبئا بالثورة"¹⁷. هذا من ناحية أنه موجه ومرشد.

2- وجود عدد كبير من صور المستقبل التي كانت كلها تقريبا من صنع راديكاليين مثاليين بئسين، كفكرة "أن التاريخ يتحرك قدما وصعودا نحو حالة من الكمال ليست فكرة يسارية"¹⁸، بل هي فكرة عامة في عصر التنوير.

المهم بالنسبة لماركس ليس العلم بمستقبل مثالي، وإنما حل تناقضات الحاضر مما يضمن مستقبلا أفضل من المستقبل القادم. وعندما يكتمل هذا لا تبقى حاجة لأناس غيرهم، ومن يساعد على تجسيد الحاضر أفضل بالنسبة إلى ماركس هو "الطبقة العاملة"، شرط ألا يكون المستقبل مثل الحاضر، ولا يكون الحاضر منقطعا عن المستقبل مثل ما اعتقد البعض، لأن الإنسان هو من المخلوقات النادرة جدا، أي كائنا مستشرفا وواقعيا في الآن نفسه، فهو يدير ظهره لأوهام المستقبل حتى يرى حقائق الحاضر، وفي هذا سيجد مستقبلا خصباً مطلق العنان.

يؤكد إيغلتن أن النظرة القائلة بمثالية الماركسية الحاملة بمستقبل جنوني "يتعاون فيه كل إنسان مع الآخر كرفيق له"¹⁹، ومبادئ كانعدام الحسد واللامساواة.. الخ، ما هي إلا ادعاء، ولا يوجد إلا كلام قليل في كتابات ماركس يساند هذا الإدعاء المستهجن، إذ أن محاولة إخراج الفلسفة الماركسية من ميدان الفلسفة جعلت منه مثاليا في نظرهم²⁰ لا غير. وحجج من يقول بهذا الكلام لا مقابل لها في الواقع، لأنه لو صدق ما قيل في الواقع لوجدناه يوحى بأن "الكائنات البشرية هي مخلوقات ضعيفة وفاسدة وأنانية"²¹، ورؤية ماركس هذه على حق، إذ أن الكائن البشري طبيعته لا تسمو

إلى المثالية التي زعم بها نقاده، وهو ما حازه به نورمان غيراس (Norman Geras) في كتابه "ماركس والطبيعة البشرية" الذي يصحّ فيه بأحقية ماركس في عدم رفضه للطبيعة البشرية. بينما البعض يرى أن تخلى عنها، وهذا نابع من قراءة عمل ماركس دون بقية الأعمال، حيث أنّ كتاباته اللاحقة قد استرشدت بفكرة الطبيعة البشرية المحددة التي تفي بكلّ من الوظائف التفسيرية والمعارية، وعليه لا يمكن للحيوانات الاجتماعية (الإنسان) أن تتعايش جنبا إلى جنب في ظلّ تحقيق الحرية لأفرادها لأجل تحقيق ذواتهم، بمعنى أنّنا لا نصل إلى حريتنا إلّا عبر الآخرين، وعليه فالفردانية ما هي إلّا صورة رسمت عن ماركس من البداية إلى النهاية، وهي مظهر حيوي لكونه إنسانا.

في الواقع هناك صراع دائم بين ما يرضيني ويرضيك، والحرية الفردية للجميع هي هدف كجميع المثل العليا التي نسعى إلى تحقيقها جميعا، والمثل غير ملموسة (الميتافيزيقية) كباقي أهداف الإنسان الواقعية، فماركس مثلا يرى فكرة "التعاون" كوحدة إنتاجية للمستقبل الاشتراكي، باعتبار أنّ جميع عناصر وأفراد المجتمع يقومون بتحقيق ذلك التكافؤ المنشود، وتعاون المجتمع مع بعضه البعض سينعكس حتما على الجميع بفضل التشاركية، لتصبح قضية عضوية (يشترك فيها الجميع) وليست قضية فردية، إذ لا توجد فضيلة ومثالية في المجتمع، كما لا يوجد كمال بشري ولا فردانية أيضا.

يشرح إغلطون قانون الوفرة في موضع آخر بأنّ الكائنات الحية تكون في أحسن حالاتها إذا حاصرتها ظروف القلّة، والإنسان بطبعه لا يكون بخير إذا كان في حالة فقر وجوع شديدين، وإلّا فهذا يولّد القلق والسيطرة لديه على الآخرين، وعليه؛ ليست الظروف الجيدة هي التي تولّد السعادة والسلام في المجتمع، وقد أكّد هذه الفكرة في كتابه البيان الشيوعي قائلا: "أنّ التاريخ بأكمله كان تاريخ صراع طبقات، حتى في ظروف الوفرة سيكون هناك الكثير من الأشياء التي نشعرنا بالخوف والعدوانية والتمكّن. لن نتحوّل إلى ملائكة لكنّ بعض الأسباب المتجذرة في نقصنا الأخلاقي يجب التخلّص منها"²²، لهذا يكون الحلّ بوضع اتفاق سياسي يكون له تأثير على المواقف البشرية،

فالسُّلوك البشري لن يتغيّر بين ليلة وضحاها مهما مرّ عليه من الزّمن، فهو متجذّر في الإنسان منذ الصغر، وتغيير سلوكنا يأخذ وقتاً طويلاً.

ما قيل في ماركس بأنّه متشائم بصورة غير عادية بخصوص الماضي ومتفائل بشكل غير معتاد حول المستقبل بنظر إيجلتون صحيح، حيث أنّ هذا المستقبل هو استنتاج ممكن للحاضر، وذلك من خلال توفر الشروط المادية.

يرفض ماركس في كتابه "نقد برنامج غوته" أن تقوم العدالة على المساواة في التعامل بالطريقة نفسها، وإنّما في "مراعاة الحاجات المختلفة لكل إنسان بطريقة متساوية"²³، والحاجات الإنسانية لا تقاس بالمعيار نفسه ليكون بذلك ماركس عدو الطوباوية بشهادة أدورنو أيضاً.

5. الماركسية حتمية اقتصادية:

يركز هذا الجزء على الفكرة القائلة: "تحوّل الماركسية كل شيء الى اقتصاد. إنّها نوع من الحتمية الاقتصادية: [...]". فالتعقيد الحقيقي للشؤون البشرية يتم تجاوزه لصالح رؤية أحادية اللون للتاريخ. كان ماركس في هوسه بالاقتصاد مجرد صورة معكوسة للنظام الرأسمالي الذي عارضه. وفكره على خلاف مع وجهة النظر التعددية للمجتمعات الحديثة، ويعي بأنّ المدى المتنوع للتجربة التاريخية لا يمكن أن يحشر في إطار جامد واحد. فالإنتاج المادي بالنسبة للماركسية هو عنصر مهم، لأنّه يحدد طبيعة الحضارة ليشبه بهذا الفرق في القول بأنّ القلم لا غنى عنه في كتابة القصة"²⁴.

يقوم بحث ماركس (في نظر إيجلتون) على أنّ النشاط السياسي ما هو إلّا انعكاس للنشاط الاقتصادي، لكن بصورة غير مباشرة، فماركس يطيل البحث في الدوافع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي هي دوافع سطحية لدوافع اقتصادية أعمق، وعليه تترك القوى المادية سماتها على الحياة الاجتماعية بصورة مباشرة وبتأثير أخف، في حين أنّ الدور الاقتصادي هو الذي يدفع بنا للنشاط الاجتماعي، ليصبح الادعاء القائل بأنّ كل شيء بالنسبة لماركس يحدده الاقتصاد ما هو إلّا نظرة سطحية وليست حقيقية، لأنّ ما يبني التاريخ هو ذلك الصراع الطبقي، بدليل قول علي المخلبي: "التفسير

الماركسي للتاريخ باعتماد العامل الاقتصادي المادي الذي يتقوّم بالصراع الطبقي، تفسير ذو عامل واحد، أي أنّه لا ينظر إلى سائر الأعمال إلّا على أنّها نتيجة العامل الاقتصادي²⁵. والمتعمّق لكتابات ماركس سيفهم أن المصطلحات المستعملة تنتهي في ظاهرها إلى الحقل الاقتصادي لكن في حقيقة الأمر أنّها بعيدة كل البعد عنه.

فكلمة إنتاج في كتابات ماركس مثلاً تعني أي نشاط يبعث على إشباع الذات ك: العزف على البيانو، إلقاء خطاب... وما يصطلح عليه "عمل" فيسميه ماركس "ممارسة" وهكذا..

6. الماركسية بين المادّة والروح:

يعالج إغلتنون في هذا الفصل مسألة المادّيّة، حيث أنّ نقاد ماركس يرون بأنّه مادي، و"يُعتقد أنّه لا يوجد شيء سوى المادّة، لم يكن لديه (ماركس) أي اهتمام بالجوانب الروحانيّة للبشريّة، وقد نظر إلى الوعي البشري على أنّه مجرد انعكاس للعالم المادي. كان نابذا للدين من ذهنه بشراسة، وينظر إلى الأخلاق على أنّها في نهاية الأمر مجرد مسألة، والغاية تبرر الوسيلة. الماركسية تمتص من البشريّة كل ما هو ثمين بالنسبة إلّهما، فتحوّلنا كتلا جامدة من المواد التي تحددها بيئتنا. ثمة طريق واضح من هذه الصورة الكئيبة الخالية من الروح البشريّة إلى فضاء ستالين وآخرين من تلامذة ماركس"²⁶.

يردّ إغلتنون على هذا الطرح بأنّ ماركس لم يكن يبالي بالمواد التي صنع منها العالم (المادّيّة)، بل كان مهووساً فقط بكل ما هو ملموس، بينما المجرد هو أمر خال من المزايا على حدّ قوله، وعليه فالمادّيّة هي شكل من أشكال التفكير، يرتبط أساساً بثروات الطبقة الوسطى، كما أنّ الأجسام البشريّة كتل مادية مبتكرة ومبدعة، والذي جعلها تبعد هو العقل الذي يعطها المعنى في هذه الحياة على عكس ما يراه علماء الأنوار بأنّ العالم مادة ميتة خالية من المعنى، والوعي هو نتيجة تفاعل بين أنفسنا وما يحيط بنا، غير أنّه (الوعي) يتأخر زمنياً مثلما يتأخر عند الطفل، فقبل أن نصل إلى مرحلة التفكير فإننا نكون موضوعين في سياق مادي، ولا يمكننا أن نفصل عنه أو ننعزل، وإلّا كنّا مغتربين كما قال ماركس.

زيادة على ما وضحه إيفلتون فإنّ هذه المادة هي حركية، لأنّها مرتبطة بالعالم الخارجي²⁷. فالجسد في الحقيقة هو شيء مادي، لكن لا يشبه بقية الأشياء المادية كالفحم كما يقول إيفلتون، لأنّ له خاصية يتميز بها عن بقية الأشياء المادية ألا وهي العقل، إذ بإمكانه التغيير من نفسه ومنه، وهو كذلك جزء من التاريخ والطبيعة، وعليه فهو صانع للتاريخ والحضارة على حد سواء، فكل مؤسسة أو منظمة هي امتداد للجسد المنتج، وعليه فالواقع هو نتاج الوعي، بينما الملفوف هو كيان طبيعي صرف، والحاجات البشرية لا تشبعها إلا الوسائل الاجتماعية، وهذا طريق إلى القول بأنّ الشروط الاقتصادية هي الأساس لكلّ حياتنا، فهي الرابط الحيوي بين البيولوجي والاجتماعي، وكل ما هو روحيّ مرآته الجسد، فالسعادة مثلا عامل روحي ونشاط ممارس لا حالة ذهنية خفيّة، هذا من جهة، أما النشاط الآخر بنظره فـ "تظهر فيه الروح بشكل واضح جدا، وهو اللغة... هي التجسيد المادي لروح الوعيّ البشري"²⁸، ليكون بذلك الوجود المادي أساسيا جدا أكثر مما عليه المعاني التي ترسم طريقا للتفكير، بمعنى أنّ المادة تتطور والأفكار تتبعها إلى حيث هي متطورة، فالحاجة المادية هي التي تحدد نوع التفكير، وهو نفس ما ذهب إليه تيودور أدورنو بأنّ الأشياء المادية هي التي يتقاتل عليها المجتمع وليس الأشياء الروحية. ثمّ إنّ التحكم في الأفكار يتبعه التحكم في الإنتاج المادي.

قد يطرح السؤال كيف ذلك؟ وعليه فالإجابة تكون بأنّ المجتمع يتكوّن من طبقتين، الطبقة التحتيّة والمتمثلة في الإنتاج الاقتصادي، والطبقة الفوقيّة والتي تمثلها الثقافة، الدين، والمؤسسات هي التي تقوم بإنتاج أفكار تبرر منظومتها المهيمنة، وهو ما يعرف بالأيديولوجيا، وأفكار الطبقة الحاكمة هي التي تتحكم في الإنتاج الفكري والإنتاج المادي على حد سواء، وإذا حدث خلل بين البنيتين، فإنّ هذا سينقلب على البنية التحتية، فإذا كانت المؤسسات والمنظومة القانونية لا تساند القطاع الاقتصادي، فإنّ نظام الملكية سيهتز قليلا.

يصحح إيفلتون مسار مادية الماركسيين بقوله: "يجب على الماركسيين أن يحججوا بالقول: نعم إنّ القاعدة أهم، بمعنى أنّ التغيرات التي فتحت حقا عهدا جديدا في التاريخ معظمها نتيجة قوى مادية وليست نتيجة أفكار أو عقائد"²⁹، ولكن القوى

الأخلاقية لوحدها لا تحقق صفة القوة التاريخية إلا إذا تحالفت مع المصالح المادية القوية جدا.

7. هوس الطبقة:

يذهب تيري في هذا الفصل إلى الفكرة القائلة بأنّ الماركسية مهووسة بالطبقة، إذ "يبدو أن الماركسيين لم يلاحظوا بعد أنّ منظر الطبقة الاجتماعية قد تغيّر، بحيث لم يعد بالإمكان التعرّف عليه منذ تلك الأيام التي كان ماركس يكتب فيها [...] إننا نعيش في عالم اجتماعي، حيث المواد تقلّ أكثر وأكثر، وحيث يوجد حراك اجتماعي متزايد وحيث الكلام عن صراع طبقي مهجور الاستعمال مثل الكلام عن حرق المنشقين فوق الحطب"³⁰. لا تُحدّد الطبقة الاجتماعية على أساس اللقب أو المكانة أو حتى اللهجة أو الوظيفة، لأنّها تعتبر الفضيلة بالنسبة لأرسطو، رغم أنّها تتغيّر، وغير ثابتة في كلّ وقت، لكن هذا لا يعني أنّها ستزول، كما يعتقد أنّ الطبقة العاملة قد زالت أو حتى البرجوازية فيما بعد التي لم يعلن عنها، فالطبقة العاملة كان لها من الدور الكثير في وفرة الإنتاج وتحرك المجتمع، بنظر الماركسية للطبقة مزايا باهرة في العمل ومهمّة في خلق النظام رغم أنّه لا يُعترف بها، فهي مجرّدة من الأموال والأموال، ومع ذلك لا يستغنى عنها في المجتمع المدني.

يقرّ إغلتون بأنّ الرأسمالية لا تستغني عن الطبقة العاملة، وهي عنصر أساسي في عملية الإنتاج، ولا تزدهر بدونها، لذا لا يمكن أن تموت الطبقة، ومن يدعو إلى موتها هم أصحاب الورشات والعَمال الذين يلبسون زيّاً من قطعة واحدة. وبسبب قناعتهم "فإنّهم يتحوّلون نحو الثقافة، الهوية، والقومية، والجنس"³¹، هذه القضايا هي التي أصبحت تقسم المجتمع بالموازاة مع الطبقة الاجتماعية.

8. الماركسيّة والعنف السياسي:

يقول النقاد: "الماركسيون هم المدافعون عن العمل السياسي العنيف: هم يرفضون المسلك الحنيف الذي يسير عليه الإصلاح المعتدل، ويختارون بديلا عنه الثورة الفوضوية المملّخة بالدماء... وبما أنّ الماركسيين يحتقرون الأخلاقية بوصفها مجرد إيديولوجيا، لذا نراهم غير قلقين من التأثير الذي ستحدثه سياستكم على

السَّكان. الغاية تبرر الوسيلة، مع ذلك قد يضيع الكثير من الحياة في هذه العملية³²، يردّ إيغلتنون على هذا القول بأدلة من التاريخ عن الثورات التي بدت في ظاهرها أنها عنيفة، إلا أنها تتسم بالسلمية، ثم إنّ الثورات عادةً ما تكون في حالة تخمّر لفترة طويلة قد تستغرق قرونا لتصل إلى أهدافها، كما أنّ الدول العظمى نشأت معظمها من الثورة، إذ نجحت بفضل مسحها للتاريخ الدامي من عقول مواطنيها، فهي لا ترغب أن يكتشف المواطنين ظلمها في الاستيلاء على شعبها علناً، بل تبني شعبها على أسس تجعله ينسى عذاب تكوينه، أي وكأنّه صار بشكل طبيعي إلى ما هو عليه، بحيث تخفى الحقائق تماماً.

نرى أن إيغلتنون يحاول في هذا الفصل أن يُظهر الجانب الإيجابي من الثورة وانعكاسه على المجتمع، فليس كل ثورة هي عنف من أجل العنف، وليس على الإصلاح أن يكون سلمياً دائماً، ف"لا شك في أنّ معظم النّاس في الغرب في الوقت الحاضر سوف يعلنون عن أنفسهم ضد الثورة. الأمر الذي يعني على الأرجح أنّهم ضدّ بعض الثورات ويؤيدون ثورات أخرى"³³، مما يعني أنّ الثورة ليست لإلحاق الضرر بالآخرين بل قد تكون هناك ثورة حتمية أو حالات استثنائية، من ذلك مثلاً أنّ ميثاق هيئة الأمم المتحدة يسمح وبشدة بالمقاومة المسلّحة ضد السلطة المحتلّة كوسيلة للدفاع عن نفسها.

من المعلوم أنّ الماركسية في مرحلة ستالين وماوتسي تونغ قد اشتملت على الكثير من القتل والسّفح، ومع ذلك؛ فقلّة من الماركسيين من ظلّوا يدافعون عن هذه الجرائم، لكن ماذا عن جرائم الرأسمالية؟ فالحرب العالمية الأولى أبادت الشعوب وأنجبت دولة فاشية، وإذا كانت الثورات الاشتراكية قد لجأت إلى العنف بشكل تام، فإنّ سبب هذا يعود إلى طبقات الرأسمالية التي تمتلك الأموال، والتي نادراً ما تتنازل عن امتيازات بدون صراع. والثورة المقصودة هنا ليست الثورة التي يقوم بها جناح عسكري لإسقاط دولة، وإنّما الثورات التي تحدث حينما تنقلب طبقة اجتماعية في حكم طبقة أخرى، وتستعيز عنها بسلطتها الخاصة بها.

من منظور آخر؛ "هناك شكل آخر لهذه الاشتراكية عملياً أكثر، وأقل تمذهباً، سعى إلى جعل الطبقة العاملة تنفر من كل حركة ثورية، بالبرهنة على أنّ ما يسعه أن

يفيدها ليس هذا التغيير السياسي أو ذاك، وإنما فقط تغيير أوضاع الحياة المادية، أي الأوضاع الاقتصادية"³⁴.

قد يتساءل القارئ: لماذا يتطلّع الماركسيّون إلى الثورة أكثر من تطلّعهم إلى الديمقراطية والإصلاح الاجتماعي؟ يجيب إغلتنون على هذا بقوله: "لا يفعلون ذلك، أو على الأقل لا يفعلونه بشكل كليّ، فقط أولئك المعروفون باليسار المتطرّف هم الذين يفعلون ذلك"³⁵، فبعض الإصلاحات التي يقوم بها النظام الليبرالي هي في أصلها ناتجة عن صراع شعبيّ، ففي العهد الفيكتوري في بريطانيا شهد ماركس على تخلص الإصلاح من الثورة، لكن هذا لم يدم لفترة طويلة، مما هدّد الرأسمالية بالانهيار، لتتحوّل فيما بعد إلى دولة بربرية بدل الاشتراكية، إذا لم توجد قوة بديلة لها.

9. الدولة مشروع ماركسي:

يرى نقّاد ماركس أنّ "الماركسيّة تؤمن بدولة كليّة السلطة، وبما أنّ الثّوار الاشتراكيين قد ألغوا الملكية الخاصة، فهم يحكمون بوسائل سلطة استبدادية، وهذه السلطة ستضع حداً للحرية الفردية... فليس من سبب لتوقع الأمور ستكون مختلفة في المستقبل. ويعتبر إفساح الشعب في المجال للحزب، والحزب للدولة، والدولة لدكتاتور ظالم جزءاً من منطق الماركسية. قد تكون الديمقراطية الليبرالية غير كاملة، إلّا أنّها أفضل بكثير من أن تكون محصورة في مستشفى الأمراض التنفسية، لأنّها تجرأت على إعطاء المواطنين حكومة متسلطة بشكل همجي"³⁶، غير أنّ ما يميّز به ماركس ليس هذا، بل على العكس، فهو الخصم اللدود للدولة على حد قول إغلتنون، (باعتبار أنّ زمنها قد ولى)، وهو متحمّس لحكومة حكموا عليها (النّقاد) بالاستبدادية، رغم كونه لا يزال حلماً طوبوياً، وهذه الأخيرة لم تنشأ بالصدفة، بل لأنّها ليست الطوباوية التي تخالف العقل السليم، كونها تسعى إلى إدارة أخرى غير الدولة حتى تحكم وتدير المجتمع، فقد وصفت بأنّها أداة عنف، وإذا لزمّت الشيوعية الدولة فهذه السلطة السياسية للدولة ستضمحل وتختفي تلك السلطة المؤيدة للطبقة الاجتماعية المسيطرة على باقي الطبقات.

برأي إغلغتون؛ هذه النظرة هي واقعية من ماركس، فالدولة غير نزيهة في إدارتها عن المصالح الاجتماعية المتصادمة، فهي لم تتخذ الطرف المحايد في الخلاف بين العمل ورأس المال، أو في القطاعات الأخرى، إذ وجدت لتدافع هي على نظامها الاجتماعي المعمول به ضد من يسعى إلى تغييره، لهذا اعتبرت نظاما غير عادل في كل الأحوال، لأنّ "الشرطة التي تضرب العمال المضربين عن العمل أو المتظاهرين السلميين لا يمكنها بعد اليوم أن تدّعي أنّها غير متحيّزة"³⁷، في حين أنّه لا يمكننا أن نستغني على خدمات الشرطة والمحاكم والسجون في إلقاء القبض على عصابة إرهابية، وعليه لا يمكن اعتبار أيّ عنف من الدولة هو حماية للوضع القائم، ولهذا ماركس لم يكن رافضا تماما للدولة كنظام، لأنّه يؤمن "بأنّه يمكن أن تكون قوّة من أجل الخير"³⁸، وهذا ما جعله يساند تشريعات إنكلترا فيما بعد، في أنّه يرفض تماما اعتبار الدولة مصدرا لانسجام الجماعات والطبقات، لأنّها تقوم بذلك من أجل مصلحة الطبقة الحاكمة، هذا الكيان هو ما أطلق عليه الديمقراطية فيما بعد، لكن برأي ماركس؛ فالديمقراطية لا تنحصر فقط في البرلمانات، فهي ثمينة، يجب أن تتواجد في كل مؤسسات المجتمع المدني وتمتد إلى بقية الميادين.

كان على الرجال والنساء أن يسترجعوا حقهم من السلطات، هذا ما يسعى ديمقراطية، أمّا الاشتراكية فما هي إلا تكملة للديمقراطية، لهذا لا نجد حكومة ديمقراطية تعمل لصالح الطبقة الحاكمة، والتاريخ يشهد أنّ الكمونة (جماعة منتخبة من الشعب)، في سنة 1871 هي "المثال الرئيسي لحكم ذاتي شعبي"³⁹، هذا بالنسبة لماركس، بحيث يمكن استدعاؤهم إذا تطلب الأمر ذلك، في حين تمّ إلغاء الجيش النظامي، والشرطة أصبحت هي المسؤولة أمام الكمونة.

يؤكد إغلغتون أنّ ما لاحظه ماركس في الدولة هو أنّها كيان مستقل ومؤثر، بحيث أنّه بإمكانها أن تؤثر في الاقتصاد، بل وتسيطر عليه، على نحو ما يحدث حاليا، فهي القوّة الاجتماعية المسيطرة في نمط الإنتاج الآسيوي الذي ينطوي على أعمال ربيّ كبيرة لا يمكن إلّا للدولة أن تنفذها، فالقوى الحاكمة في الأزمان هي التي تدير الدولة، كما أنّ هناك فترات تحكم فيها طبقة بالنيابة عن طبقة أخرى، ومثال ذلك لويس بونابرت الذي

كان يحكم فرنسا ويقدم نفسه كممثل للفلاحين، وبالرغم من هذا، لم يكن ماركس مفراط الحساسية اتجاه السلطة، فمعنى السلطة في لندن ليس هو نفس المعنى في باريس، وعليه فالسلطة يجب أن توضع في إطار تاريخي، يجب أن يعرف لصالح من هي تشتغل، غير أنها في الظاهر أمر مادي لا محسوس من خلال اكتسابها عنصر سيطرة بداخلها، وهو ما عرّج عليه نيتشه وفرويد فيما بعد، إذ لا يجب أن ينظر إلى السلطة كأداة، لأنّ هذا تقييد لمستقبلها الحيوي.

بالرجوع إلى تفسير إيجلتون لأفكار ماركس يتضح وبشكل جلي أنّ أفكاره منطقية ومقاربة للواقع بشكل كبير، إنّ لم تكن مأخوذة من الواقع، فللدولة وجهان، أحدهما أمن وسلام والآخر استيلاء على ما كان.

10. الماركسيّة والحركة الراديكالية:

يتحدّث هذا الفصل عن الحركات الراديكالية وعلاقتها بالماركسية والرأسمالية، إذ يعتقد كثير من النقاد أنّ "كل الحركات الراديكالية الأكثر جدارة بالاهتمام في الأربعين سنة الماضية هبّت من خارج الماركسية والحركات النسوية، والحفاظ على البيئة والسياسات المتعلقة بالمثليين والأعراق... كلّها تشكّلت من الالتزام بصراع الطبقات قديم العهد، هي تمثل أشكالاً جديدة من النّشاط السياسي الذي تركته الماركسية بعيدا خلفها، مساهماتها في تلك الحركات كانت هامشية ولا تحدث وقعا في النفس، ولا يزال يوجد بالفعل يسار سياسي لكنّه يسار ملائم لعالم ما بعد الطبقات، وما بعد الصّناعة"⁴⁰.

من الواضح أنّ الماركسية والرأسمالية قد أغفلتا مواضيع الجنس والعرق... إذا كان عمل ماركس (برأي إيجلتون) ذكوريا، فلأنّه كان أبوياً فكتوريا من الطراز القديم، ومع ذلك قد أولى بعض الاهتمام في كتابه "الايولوجيا الألمانية" لعلاقات التوالد الجنسية في حديثه عن بداية تكوين الأسرة، ولأنّ إنجاب الخلائق هو في حدّ ذاته عمل إنتاجي، لأنّه يولّد لنا قوة الإنتاج، فإنّ تحرّر المرأة لا يمكن فصله عن نهاية المجتمع الطبقي، ثمّ إنّ اضطهاد المرأة من قبل الرجل قد اعتبر خضوعاً من الدرجة الأولى، وأهداف الشيوعيّة وتحرير المرأة هما حليفان. فإذا كانت الماركسية تعمل من أجل

حقوق المرأة، فهي كذلك تدافع عن المقاومات الاستعمارية في العالم بأنها المعتمدة في المساواة بين الأعراق، أمثال فانون ومعظم الأحزاب الشيوعية الذين أدرجوا القومية في جدول أعمالهم، وذلك من أجل جعل نفسها قضية دولية أفضل من وطنية، لتكون الماركسية بذلك محاميا ضد الاستعمار ومدافعة عن الحركات القومية، وماركس بنفسه أيضا استحسن الاستعمار، ليس لأنه ينقل حدثاته إلى العالم النامي، بل في تمهيده لطريق الاشتراكية، فالاستعمار بنظره ليس دائما حاملا للعنصرية، العنف، الفقر فقط، بل هو حام أيضا للديمقراطية والتكنولوجيا ووسائل الاتصال، ومن هذا الاحتكاك تنشأ قضايا الجنس، العرق، اللغة، الغيرية والاحتكاك، وبما أنّ ماركس أوروبي، افترضوا عليه أنّ "الماركسية متمركزة حول أوروبا، وتسعى إلى فرض قيمها الغربية الخاصة بالعرق الأبيض على مختلف قطاعات المعمورة"⁴¹، فطالما كان يعتقد أنّ "تقاليد الفكر التحرري تطبع بطابعها تاريخ أوروبا"⁴²، لهذا هناك من ينظر إلى أوروبا على أنّها سلبية تماما، في حين أنّ هوامشها هي الايجابية، وهؤلاء برأي إغلغتون هم أوروبيون "مصابون بعقدة الذنب أكثر من كونهم ما بعد استعماريين مع روح معادية لأوروبا"⁴³، في حين أنّ ماركس الذي هو من الطبقة الوسطى، لاحظ التناقض القائم بين مبادئ الحداثة الغربية من الحرية والعقل والتقدم، وبين تجسيدها على الواقع، فماركس كان ناقدا لحركة التنوير، وهذا النقد كان من الداخل. صحيح أنّ ماركس أوروبي، لكن أفكاره ازدهرت في العالم الثالث وتجذّرت في آسيا، فمعظم المجتمعات الماركسية هي غير أوروبية.

لاحظ نقاد ماركس إيمانه بسيادة الإنسان على الطبيعة، ويؤكد إغلغتون وجود هذا في كتاباته، لأنّ الاهتمام بالطبيعة وعناصرها كغاز ثاني أوكسيد الكربون لم تكن موجودة في 1860، كما أنّ لقاحات تفوئيد أبرز دليل على سيادة الإنسان على باقي الكائنات، لكن تبقى هذه العلاقة محيرة، لأن حياتنا أصبحت مرتبطة بقطع المادة التي أصبحت سيطرتنا عليها قليلة. "بهذا المعنى ومعان أخرى، كان نقد ماركس للاقتصاد الرأسمالي مرتبطا ارتباطا وثيقا باهتمامه بما يتعلق بالطبيعة"⁴⁴، إذ أنّ المادة هي جزء من الطبيعة، كما أنّ المتحكم في السوق هو قوى الطبيعة التي ليست لدينا سيطرة كبيرة عليها.

"إنّ التهمة بأنّ ماركس هو مجرد مستنير عقلائي آخر ماض في نهب الطبيعة باسم الإنسان هي تهمة خاطئة"⁴⁵، يرر إيجلتون قوله هذا بأقوال نقاد آخرين يرون أنّ ماركس ممثل لفهم قضايا السيطرة على الطبيعة ولا يمكن إيجاد نظيره في القرن 19، لأنّه يعلم أنّ التقدّم الاقتصادي يجب أن يحدث في المحافظة على الطبيعة للأجيال القادمة، هذه الأخيرة التي لا يمكن السيطرة عليها إلّا حينما نفهم القوانين المتحركة فيها، وعليه لا يوجد أدنى شك بأنّ ماركس سوف لن يكون من حركة حماة البيئة في مواجهة الرأسمالية الناهية للطبيعة، وإذا انقطعت العلاقة بين الإنسان والطبيعة فإننا سنكون بصحبة "عالم للرأسمالية" من دون معنى، تكون فيه الطبيعة مادة قابلة للتلاعب بها. بهذا صار ماركس يعتقد أنّ حواسنا أصبحت بمثابة سلعة للرأسمالية ولن نعود لأجسادنا إلّا بالشيوعية، لأنّ الرأسمالية جعلت من الطبيعة مادة لمنفعتنا فقط، مما يزيد الوضع سوءا.

يختصر إيجلتون ما قيل بقوله: "التهديدان الكبيران للحياة البشريّة اللذان يوجهاننا الآن هو التهديد العسكري والتهديد البيئي، يبدو وكأنّهما يتقاربان في المستقبل أكثر فأكثر إلى أن يصلا إلى صدمات تتفاقم لتتحول إلى نزاع مسلّح"⁴⁶، فإذا بقيت الرأسمالية تسير على منظومة الدولة، فإنّها ستكون محلّ تهديد للسلم العالمي، لأنّها وإن كانت مسالمة للبيئة، فهي خاضعة حتما لمتطلبات رأس المال الذي بدوره معاد للتوازن البيئي.

خاتمة:

في الأخير نستنتج من خلال تحليلات إيجلتون أنّ:

ماركس شديد الإيمان بما هو فردي، ويدرك أنّ المستقبل لن يجعلنا متساوين حق المساواة، لهذا تأمل أن يرى تنوعا لا تطابقا بين أفراد المجتمع، ولا يمكن أن يوجد مجتمع خال من الصراعات. وفكرة انتهاء الماركسيّة ما هي إلا ادعاء زعمه نقاد ماركس لإلغائها من الوجود وإحالة الرأس مالية محلّها. أمّا الحجة القائلة بأنّ الماركسية تدعو إلى المثالية التي عجزت عن تطبيقها في واقع تصبح فيه المادة أغلى من الروح البشريّة

خاطئة، فالروحي هو في الواقع ما يهتم بدنيا الآخرة لا الحاضرة، إنه العالم الذي يأمل الاشتراكيون أن يبنوه بدلا من عالم تخطى التاريخ الذي يحرم أن تباع البضاعة بعده.

آراء ماركس في الطبيعة والبيئة كانت الجزء الأكبر منها سابقة لأوانها، لذا لم يوجد برأي ايغلتنون بطل أشد توافقا للسلام العالمي وأصدق منه للتحرر والقتال ضد الاستعمار. كما أنه من البديهي القول بأن كل شيء يعود إلى الاقتصاد في النظرية الماركسية، بدليل أن أول فعل في التاريخ هو إنتاج وسائل لإشباع حاجياتنا المادية، ليس هذا فقط، بل هو من يحدد في نهاية الأمر طبيعة الحضارة.

هذا باختصار أهم التحريفات التي قوّمها ايغلتنون في كتابه ليعيد بذلك تصحيح مسار القضايا الفلسفية الأكثر أهمية للفكر النقدي الماركسي.

الهوامش:

¹ تيري ايغلتنون، لماذا كان ماركس على حق؟، تر: غانم هنا، دار الكتاب العربي، بيروت، اوت2013، ص7.

² المصدر نفسه، ص 12.

³ المصدر نفسه، ص18.

⁴ مجاهد عبد المنعم مجاهد، مقدمات في نقد النظرية الماركسية، منشورات الطليعة العربية، القاهرة، 1961، ص5.

⁵ تيري ايغلتنون، لماذا كان ماركس على حق؟، مصدر سابق، ص33.

⁶ المصدر نفسه، ص 35.

⁷ علي المخلي، الماركسية، دار عليسة للنشر والتوزيع، ط 1، تونس، د ت، ص39.

⁸ المرجع نفسه، ص35

⁹ مجاهد عبد المنعم مجاهد، مقدمات في نقد النظرية الماركسية، مرجع سابق، ص4.

¹⁰ تيري ايغلتنون، لماذا كان ماركس على حق؟، مصدر سابق، ص37.

¹¹ المصدر نفسه، ص38.

¹² المصدر نفسه، ص39.

¹³ المصدر نفسه، ص46.

¹⁴ المصدر نفسه، ص 60.

¹⁵ المصدر نفسه، ص61.

¹⁶ المصدر نفسه، ص61.

¹⁷ المصدر نفسه، ص62.

- ¹⁸ المصدر نفسه، ص 62.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص 72.
- ²⁰ ينظر: علي المخلي، الماركسيّة، مرجع سابق، ص 36.
- ²¹ تيري ايغلتنون، "لماذا ماركس كان على حق؟"، مصدر سابق، ص 80.
- ²² المصدر نفسه، ص 91.
- ²³ علي المخلي، "الماركسيّة"، مرجع سابق، ص 16.
- ²⁴ تيري ايغلتنون، "لماذا ماركس كان على حق؟"، مصدر سابق، ص 96.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص 105.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص 105.
- ²⁷ هرمان دونكر، البيان الشيوعي، تر: عصا أمين، دار الفراي، ط 1، لبنان، 2008، ص 53.
- ²⁸ تيري ايغلتنون، لماذا كان ماركس على حق؟، مصدر سابق، ص 112.
- ²⁹ المصدر نفسه، ص 115.
- ³⁰ المصدر نفسه، ص 121.
- ³¹ المصدر نفسه، ص 130.
- ³² المصدر نفسه، ص 143.
- ³³ المصدر نفسه، ص 144.
- ³⁴ المصدر نفسه، ص 147.
- ³⁵ مجاهد عبد المنعم مجاهد، مقدمات في النظرية الماركسية، مرجع سابق، ص 16.
- ³⁶ تيري ايغلتنون، لماذا ماركس كان على حق؟، مصدر سابق، ص 152.
- ³⁷ المصدر نفسه، ص 156.
- ³⁸ المصدر نفسه، ص 157.
- ³⁹ المصدر نفسه، ص 158.
- ⁴⁰ المصدر نفسه، ص 161.
- ⁴¹ المصدر نفسه، ص 167.
- ⁴² المصدر نفسه، ص 176.
- ⁴³ المصدر نفسه، ص 176.
- ⁴⁴ المصدر نفسه، ص 176.
- ⁴⁵ هيرمن دونكر، البيان الشيوعي، مرجع سابق، ص 111.
- ⁴⁶ تيري ايغلتنون، لماذا ماركس كان على حق؟، مصدر سابق، ص 185.